

الصراع الهوياتي عند إدوارد سعيد بين داخل الثقافة وخارج المكان

The identity conflict according to Edward Said between
inside the culture and outside the place

زينب فرحي *

تاريخ النشر: 2024/07/31	تاريخ القبول: 2024/01/19	تاريخ الإرسال: 2023/12/28
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يعد إدوارد سعيد نموذجًا للمثقف الهجين فكونه شرقي الأصل غربي الثقافة ولّد في داخله نوعا من الصراع الهوياتي والذي تجلّى في مذكراته الصادرة عام 2000 بعنوان خارج المكان، وهو العنوان الذي لخص فيه اغترابه الهوياتي والذي كان الدافع الأول للحفر في أركيولوجيا الهوية عبر طرح السؤال من أنا؟ ومن هو الآخر؟ لأجل إعادة بناء تشكّل هووي جديد يلغي الحدود الثقافية والحضارية ويموضع الهوية ضمن تموضع كوني.

الكلمات المفتاحية: الهوية - الصراع - شرق - غرب - إدوارد سعيد - الأنا - الآخر

Abstract:

Edward Said is considered a model of the hybrid intellectual Being of Eastern origin and Western culture generated within him a kind of identity conflict, which was evident in his memoirs published in 2000 entitled Out of place, a title in which he summarized his identity alienation and which was the first motivation for digging into the archeology of identity by asking the question: who am I!? who is the other one? In order to rebuild a new identity formatin that

* زينب فرحي * مخبر الدراسات الأدبية والنقدية جامعة البليدة 2- . elz.ferhi@univ-blida2.dz

eliminates cultural and civilizational boundaries and places identity within a global positioning.

Key words: Identity– Conflict– East– West– Edward Said– Ego– Other.

*** **

مقدمة:

تعد الهوية من أبرز القضايا مابعد الكولونيالية باعتبار ما عانتها الذات المستعمرة من اختلالات كولونيالية و إبعاد نحو الهامش، وهي القضية التي خاض فيها المفكر والناقد إدوارد سعيد عبر مقاربتها بعلاقة المستعمر (الأنا) بالمستعمر (الآخر) محاولاً تفكيك خطابات الآخر وبناء خطاب الأنا وفق المنظور المابعد ليشكل مفهومًا هويًا متجاوزًا لحدود هذه المفاهيم وفق تجربة شخصية عاشها صورها في قالب سير ذاتي يصف فيه انزياحاته الجغرافية ودواماته الهوية التي غرق فيها في كل مكان نزح إليه بكل حمولاته الثقافية عبر استرجاعات زمانية من طفولته الفلسطينية إلى غاية انتظاره لموته الأمريكي بمرض السرطان، مسار زمني بكل انتقالاته المكانية وحمولاته الثقافية يشكل في تجليه السرد نموذجًا للهوية الهجينة .

1/ مفارقة الاسم بين سعيد الشرقي وإدوارد الغربي:

ولد إدوارد وديع سعيد في الأول من نوفمبر / تشرين الثاني سنة 1935 في مدينة القدس بفلسطين من أب فلسطيني أمريكي وأم فلسطينية لبنانية وترعرع في مدينة القاهرة بمصر بعد أن هاجر مع عائلته من موطنه ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية أين أتم دراسته هناك واشتغل في جامعاتها؛ إن هذا التباين بين اسمه الغربي " إدوارد " ولقبه الشرقي "سعيد" قد شكل له أول صدام هوياتي ، إذ يعد الاسم هو الصورة الأولى لهوية الأنا عند مقابلتها للآخر، وهذه الصورة لطالما كانت محل التباس عنه إذ يقول في مذكراته " كان يلزمني قرابة خمسين عاما لكي أعتاد على إدوارد وأخفف الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم

الانجليزي الذي وُضع كالنبر على عاتق سعيد الاسم العربي القح.... فالأمر الوحيد الذي لم أكن أطيعه ، مع اضطراري إلى تحمله هو ردود الفعل المتشككة والمدمرة التي كنت أتلقيها : إدوارد؟ سعيد ؟ " ¹؛ فقد سُي إدوارد تيمناً بوارث العرش البريطاني، أما سعيد فلم يكن سوى اسم يثبت انتمائه الفلسطيني أين كان أغلب عمومه يسمون بهذا الاسم فتركب اسمه تركيباً متضاداً ومختلفاً؛ هذا الاختلاف الذي شكل صورة من صور التمازج الهوياتي بين الشرق والغرب صورة مبكرة لم تتضح للمفكر إلا بعد عمر من البحث الثقافي، إذ كانت في بدايات عمره تجعله هذه الأسئلة المتعجبة يتساءل عن موقعه الهوياتي من أنا؟ هل أنا إدوارد الغربي ؟ أم سعيد العربي ؟ كيف يمكن للذات التآرجح بين هنا وهناك وحتى هذه الأخيرة صارت التباساً عنده فأين هي الُهنا هل هي فلسطين أم مصر أم الولايات المتحدة الأمريكية؟ إذ كان التساؤل يختلف باختلاف مواطن ارتحاله، ففي مصر أهو سعيد العربي أم إدوارد الغربي، وفي الو.م.أ هو إدوارد الغربي أم سعيد الشرقي وكان الجواب في كل مرة مختلفاً باختلاف موطن التساؤل فكان يتجاوز إدوارد ويؤكد على سعيد أو العكس حسب قوله وأحياناً كان يعمد " إلى لفظ الاسمين معاً بسرعة فائقة حتى يختلط الأمر على السامع " ² إذ لم يستطع في بداياته أن يحدد من يكون وإنما كان يجعل من طبيعة الآخر هي من تحدد ذلك فقد كان يرى في الآخر باختلافه هو المعطى الأول لهويته وانتمائه وشكلت له هذه القضية قضية إلتباس ذاتية على الدوام، فكانت هذه الإشكالية صلب تحليلاته الثقافية ومساره النقدي أين "أشاد بضرورة الربط بين المرجعيات النظرية لهذا المصطلح وتمثالاته الخطابية" ³ لتغدو الهوية طرح وجودي يسائل السرد الإمبراطوري بشكل خاص .

2/ ازدواجية اللغة كشكل من التمازج الثقافي:

تعد اللغة أداةً تواصلية بين الأفراد تعبر عن أفكار الفرد وترجم مشاعره ومكوناته بشكل يسمح للآخر معرفتها وفهمها ، سواء كان هذا الآخر مماثلاً أم مختلفاً وقد تمكن إدوارد سعيد من التواصل الثقافي مع ثقافة مغايرة تماماً لثقافته الأولى بفعل ازدواجيته

اللغوية والتي كانت ميزة تنشئته، فيقول: "لم أعرف أبداً أية لغة لهجتُ بها أولاً أي العربية أم الإنكليزية ولا يقيناً لغتي الأولى، ما أعرفه هو أن اللغتين كانتا موجودتين دوماً في حياتي"⁴ إذ بالرغم من كونه عربي إلا أن إتقانه للغة العربية لم يمنعه من إتقان اللغة الانكليزية في آن واحد وذلك لاعتبار علاقته بأمه التي جعلت من الانكليزية لغة حاضرة في تواصله اليومي فمزجت في هذا التواصل بين لغتين عربية شاعرية تعبر بها عن عاطفتها كقولها "تسلم لي"⁵ و "روحها للماما"⁶... كلمات جعلت منها سحبات تمطر عليه حباً ورقة حتى أثناء بعده عنها رغم تواصلها معه بالانكليزية إذ كانت "تراسله بالانكليزية على مدى حياتها... فكانت بعض عباراتها محكية بالعربية مثل تسلم لي ومش عارفة شو بدي أعمل ... عبارات مجزئة من مناخ الأمومة الذي أحن إليه في الأوقات العصيبة ... مناخ يغري كالحلم" ، وقد ظل حاملاً لهذه اللغة في ذاكرته التي كانت المنبع الأول للانتماء؛ إنها لغة الحب الغريزي الذي جمعه بأمه رغم تواصلها معه باللغة الانكليزية من طفولته إلا أنها جعلت من العربية لغة تواصل شاعرية تعيده الذاكرة عبر كل كلمة إلى الطفولة الفلسطينية وإلى نشأته الأولى في القدس .

ورغم حضور اللغة العربية في تنشئة هذا المفكر إلا أن الانكليزية لم تغب أبداً عنه فذلك المزج اللغوي جعل منه ذاتاً عربية غربية في الآن ذاته مما أحدث بداخله نوعاً من القلق الهوياتي على حد قوله قلق تنامي مع تنامي الأسئلة في كل محطة هاجر إليها وبداخل الثقافة الغربية بشكل خاص ، أسئلة من نوع: "ما أنت؟ هل أنت أمريكي؟ تقول أنك أمريكي لكن اسمك ليس كذلك ولم تزر أمريكا قط ، لا يبدو شكلك أمريكياً ، كيف يعقل أنك ولدت في القدس وأنت تعيش هنا ؟ أنت عربي في نهاية المطاف ولكن من أي نوع؟"⁸... أسئلة تضخمت في داخله لتدفع به إلى البحث والحفر في أركيولوجيا الهوية عساه يضع حداً لذلك الصراع الهوياتي بداخله بين ادوارد الغربي وسعيد العربي بين ثقافة غربية وتنشئة عربية وبين ارتحال هنا وهناك تبلور في فكره بحث هووي يوازن فيه بين عربيته وغربيته في

غربته، إذ "تشكل توتر حاد غير محسوم بين عالمين مختلفين كليًا بل متعادين: العالم الذي تنتهي إليه عائلتي وتاريخي وبيئي وذاتي الأولية الحميمية...وعالم تربيتي الكولونيالي وأدواقي حساسياتي المكتسبة ومجمل حياتي المهنية معلمًا وكاتبًا من جهة أخرى"⁹ وبالتالي فإن الوجود داخل ثقافة الآخر فرض عليه التماهي في لغته لكن الحضور العربي في ذاكرته لم يسمح للغته العربية بالاندثار داخله وإنما ظل في صراع بينهما بين فعل الوجود وفعل النسيان محاولًا خلق عالم من المصطلحات داخل عالم مغاير تمامًا على حد قوله .

3/ محطة المايين : إنكار للهوية النقية وفضح لامبريالية الهوية البيضاء:

تعد المذكرات السير الذاتية خارج المكان نقلاً لإشكالات تواجه الذات المغتربة والمتشكلة من مجموعة ثقافات متمازجة ، ذات تجسدت في هذا المفكر الذي جعل من الهوية مبحثًا من مباحث دراساته فبعد فكرة الهوية الكاملة التي كان يرى فيها الخلاص من الصراع الهوياتي الذي كان فيه بشكل "عرب كاملون أو أوروبيون أو أمريكيون كاملون أو مسلمون كاملون أو مسيحيون أذوكسيون كاملون ..."¹⁰ فالكمال والنقاء كانا السمة الأصلية للهوية بيد أن الارتحال من الوطن نحو أماكن متعددة ومختلفة جعلت إدوارد سعيد يعيد النظر في هذا النقاء من خلال إعادة قراءة الآخر الغربي واستيعاب رؤيته الاستعمارية، فكانت المواقف الشخصية التي تعرض لها من أشكال الإقصاء والرفض وجهًا للاستعلاء الأبيض على مادونه من هويات وثقافات فعبارة من الشكل "يا ولد. غادر المكان، وغادره بسرعة. ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان، وأنت عربي!"¹¹ أرتته حجم الهوية بينه وبين الآخر رغم الاشتراك اللغوي والجغرافي ليكون البحث في امبريالية الإمبراطورية الغربية وكشف ملامحها الكولونيالية المقنعة بمبدأ نقاء الهوية الغربية وأحقيتها بالاستعلاء على ما دونها من الهويات ناكراً بذلك التمازج الثقافي الناتج عن الالتقاء الحضاري عبر التاريخ والذي يجعل من الذوات خليطاً هجيناً من الهويات المختلفة، هجنة تشكل الذات الإنسانية كفاعل ضمن نظام أنطولوجي ، هذه الفعالية التي ينكرها الغرب على مادونه من الشعوب والتي

سعى من خلالها إدوارد سعيد إلى " تحطيم الحواجز الثقافية الفاصلة بين الجنس البشري"¹² لينطلق المفهوم الهويي نحو الشمولية والتعددية، التعددية العرقية الناتجة عن تمازج الحضارات فيما بينها عبر التحولات التاريخية والتعددية الثقافية التي تتركب منها الذات في خضم تعايشها داخل الثقافات المختلفة بفعل الانزياحات الجغرافية التي يتعرض لها الفرد الحديث إنها نفس الانزياحات التي عاشها سعيد بوصفه فلسطينيًا مهاجرًا انزياح فرض عليه تعدد ثقافي متناقض، وتعدد عرقي لم يكن له دور فيه ولا اختيار.

إن الخروج الذي عاناه إدوارد سعيد من أرضه نحو أراضي مختلفة تتشابه معه في شيء وتختلف عنه في أشياء أدى به إلى الخروج من فكرة عربي/شرقي نحو مفهوم جديد يرتبط بشكل وثيق بمفهوم الهجنة، "إذ كونه شرقيًا ولّد له نوعًا من الصدام مع الغرب، غير أن اندماجه فيه مكّنه من أن يصبح نموذجًا للمثقف الهجين وللشخصية العابرة للهويات"¹³ هذا العبور الذي مكّنه من بلورة هذا المفهوم الذي وصل إليه بنكرانه للهوية النقية بأنّيا بذلك تصورًا جديدًا لمفهوم الهوية ضمن التجربة الإنسانية المتشكلة من شبكة علاقاتية حتمية تؤدي بالضرورة إلى التمازج والتداخل، وهو السمة الأساسية للهوية عنده " فمع ترسي القرن التاسع عشر للنظام العالمي غدت جميع الثقافات والمجتمعات اليوم متمازجة ومتخالطة... وكل مجتمع هو حالة من الهجنة"¹⁴، وبالتالي فإن الهوية الهجينة ليست سوى واقع يفرض نفسه ويجب الاعتراف به بعيدا عن الانغلاق الهوياتي الذي يفرضه الغرب بمعاييره الزائفة ف"فكرة الهوية اليوم- لا تؤدي بالضرورة إلى السيطرة والعداوة، بل تؤدي إلى المشاركة وتجاوز الحدود، وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة"¹⁵ أين يمكن الاعتراف بذلك إلى تساوي الهويات والأعراق والثقافات وبالتالي إلى تفكيك المركزية وكسر تراتبية الهويات أو بالأحرى تفكيك مركزية الهوية الأوروبية القائمة على وهم الصفاء والنقاء الهوياتي وتحطيم ذرائعها الاستعمارية على الثقافات والأعراق المختلفة عبر "مسألة

الهوية والقومية، والقوة والسلطة¹⁶، لتغدو الذات متحررة من عقدة الغري النقي ويُعترف بكونها خليطاً من الأنا والآخر وتركيبية هوية هجينة تتموضع ضمن تموضع كوني.

خاتمة:

إن كتابة إدوارد سعيد السير ذاتية " خارج المكان " على قدر ما حملت من مواقف شخصية وحميمية على قدر ما قدمت أسساً معرفية ومبادئ بلورتها تلك التجارب والتي وصلت به إلى محطاته الهوياتية، محطة شكلتها الانزياحات الجغرافية ، إنها محطة المابين، أو نقطة الوقوف بين الأصل الثابت وتأثيرات الآخر المتعددة أين يستحيل اختزال هوية الذات في عنصر أو أصل واحد هذا الاختزال الذي عمل الغرب على تقزيم الهوية الشرقية من خلاله وتضخيم هويته النقية ليفرض هيمنته الامبريالية على مادونه من الشعوب ؛ وإنما هي بشكل عام تنوع ثقافي وامتزاج حضاري فرضته السيرورة التاريخية مولدة بذلك ماهية هجينة مابين الأنا والآخر إنها النقطة التي فكك بها إدوارد سعيد مركزية الهوية الغربية ليثبت أن وجوده الإنساني لا يقتصر على انتمائه لثقافة عربية أم غربية ولا لوجوده بمكان دون سواه وإنما لكونه موجود ضمن النظام الوجودي متجاوزاً بفكره الزمان والمكان وملغياً لحدود الثقافات فيكون بذلك المثقف " خارج المكان " .

الهوامش :

- 1- خارج المكان، إدوارد سعيد، تر فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2000، ص25
- 2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- 3- الهوية السرد الإمبراطورية، عبد الله إبراهيم، ضمن مؤلف جماعي "إدوارد سعيد- الهجنة، السرد والفضاء الإمبراطوري"، ابن النديم للنشر، الجزائر، ط1، 2016 .
- 4- خرج المكان، إدوارد سعيد مرجع سابق، ص25
- 5- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 6- المرجع نفسه، ص27.
- 7- المرجع نفسه، ص29.
- 8- المرجع نفسه ، ص8.
- 9- المرجع نفسه، ص28.
- 10- المرجع نفسه ، ص28.

- 11- المرجع نفسه، ص72 .
- 12- الهوية و مفارقتها في فكر إدوارد سعيد النقدي بحث في الأصول النقدية ، سليم حيولة- ضمن مؤلف جماعي بعنوان:الهجنة - السرد و الفضاء الإمبراطوري - مرجع سابق ص174 .
- 13- إدوارد سعيد من خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، لونيس بن علي، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص58.
- 14- تأملات حول المنفى، إدوارد سعيد، تر: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط2، 2007، ص238/237.
- 15- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط4، 2014، ص10
- 16- إدوارد سعيد، "الاختلاق، الذاكرة والمكان"، ترجمة: رشاد عبد القادر، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 104، خريف2000، ص196.

*** **